الكـرمـل

أبحاث في اللغة والأدب

العدد ١٦ (١٩٩٥)

مراجعات في الكتب
حول الشعر العربي ليهود شمال افريقيا

יוסף שיטרית, **השירה הערבית-יהודית שבכתב בצפון אפריקה - עיונים פואטיים, לשוניים ותרבותיים**, משגב ירושלים, המכון לחקר מורשת יהודת ספרד והמזרח, 1994, 401 עמ' + הקדמה באנגלית (ביבליוגרפיה, רשימת כתבי-יד, מפתח השירים הערביים-יהודיים על פי סדר הצגתם בספר, מפתח השירים על פי סדר א"ב, מפתח שמות המשוררים, מלון מונחים).

لم يحظ الشعر العربي-اليهودي الذي تطور في أوساط أبناء الطوائف اليهودية في شمال إفريقيا في القرون الأخيرة بدراسات عديدة من جانب العلماء والأساتذة الجامعيين يهوداً كانوا أم عرباً. وفي حين يعود عدم انشغال النظام الثقافي والاكاديمي العربي بهذا الموضوع الى كونه يتجاوز عادة دائرة اهتمامات جمهور المتلقّين العرب، يثير تجاهل الموضوع من جانب النظام الثقافي والأكاديمي الإسرائيلي حتى الاونة الأخيرة استغراباً يصعب تفسيره سيما وأن أغلبية ساحقة من الجمهور الإسرائيلي تعتبر هذا الشعر من مقومات تراثها الثقافي. لقد باتت، للأسف الشديد، ظاهرة تهميش الثروات الأدبية والثقافية لليهود الشرقيين في النظام الثقافي الإسرائيلي أمراً شائعاً ؛ مرده اعتماد هذا النظام على أسس ثقافية وجمالية خارجة عن مجال مؤثرات الثقافة العربية أو العربية-اليهودية. زد على ذلك أن بحث هذا الموضوع يتطلب تخصصاً واسعاً في كلا النظامين الثقافيين، مما يجعل من الصعب تهيئة دارسين أكفاء يضعونه نصب أعينهم.

وفي السنوات الأخيرة طرأ تغير ما وأصبح بحث هذا الموضوع "شرعياً" بعض الشيء، وبصفة خاصة في إطار اهتمام أبناء الجيل الثاني للمهاجرين اليهود الشرقيين بالبحث عن جذورهم الثقافية التي تمتد عميقاً في الثقافة العربية. ولعل أبرز الدارسين في هذا الميدان هو الأستاذ يوسف شطريت من جامعة حيفا الذي يحرص في السنوات الأخيرة على القيام بمشروع واسع النطاق لبحث الشعر اليهودي لدى الطوائف اليهودية في شمال إفريقيا منذ القرن السابع

وحيّاوي على التوالي. وتستعمل العامة كذلك الوزن فعْولي لتصغير أسماء الأعلام المؤنثة بزيادة التاء المربوطة نحو فاطمه - فطّومه، زينب - زنّوبه، عائشه - عيّوشه (أو عيشه في غناء الصغار: طلعت الشُمّيسه على كُبّة عيشه، عيشه بنت الباشا تلعب بالخشْخاشَه . . .) وتصغر أسماء الأعلام المركبة على هذا الوزن نحو نصر الله - نصّوري، شكر اللَه - شكّوري، رزق الله - رزّوقي، عبد الله - عبّودي ، وتقوُل العامة : مخّولي، وجبّوري ورفّولي تصغيراً لثلاثة الأسماء العبرية[٥٢] מיכאל , גבריאל و רפאל على التوالي.

وخلاصة القول ، ان تاء التأنيث كعلامة للتصغير والأوزان المذكورة (ما عدا فُعيل وفعّولي) ولواحق التصغير وتكرار حرف من حروف الاسم المكبر، هي وسائل ثانوية للتصغير. وليس ثمة شك أن التصغير على وزن فُعيل هو أكثر وسائل التصغير شيوعاً وتداولاً في أحاديث الناس اليومية في العراق، اذ أنه قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من أحاديث الأطفال وأغانيهم وألعابهم وقصصهم، كما أن استخدامه كوزن قياسي للتصغير هو تلقائي وطبيعي خاصة بين الأطفال والصبيان. ولا نغالي اذا قلنا ان التصغير هو لغة الأطفال في العامية العراقية، وان الوزن فعّولي هو وزن خاص يستعمله الكبار عندما ينادون او يشيرون الى أسماء أبنائهم وأعزائهم للتحبيب والتدليل.

---

٥٢. Oussani, *Arabic*, p. 107 .

عشر، الى أيامنا. وفي إطار هذا المشروع صدر الكتاب الجديد الذي بين أيدينا وعنوانه "الشعر العربي-اليهودي المخطوط: دراسات أدبية نظرية، لغوية وثقافية". ويخطط البروفيسور شطريت نشر مؤلفات أخرى وبضمنها شعر الرجال الصالحين من أبناء هذه الطوائف وعن الشعر الملحمي الديني والشعر الشعبي للنساء اليهوديات من المغرب. ويكتسب هذا المشروع أهميته لما لهذا الشعر من مساهمة في التعرف على الحياة اليومية، الاجتماعية والعائلية، داخل الطوائف اليهودية في شمال إفريقيا، سيما وأن هذا الشعر قد استوعب على مر السنين مواضيع جديدة بتأثير الشعر العربي الإسلامي.

ويعالج الكتاب الذي أمامنا جنسين أدبيين مركزيين، هما الشعر الديني، الذي لا يختلف كثيراً في مواضيعه عن الشعر العبري الديني في الأندلس؛ وشعر المطروز أي الشعر الذي يشمل قصائد ثنائية اللغة أي عبرية وعربية-يهودية. ويتألف الكتاب من أربعة فصول، ويعالج الفصل الأول النواحي النظرية والتأريخية في تبلور الشعر العربي-اليهودي في شمال إفريقيا. ويركز شطريت في هذا الفصل على مميزات هذا الشعر، مقسماً إياه الى ثلاث فترات رئيسية:

أ. فترة ما قبل القرن السادس عشر

ب. الفترة التي تمتد بين القرنين السادس عشر والثامن عشر.

ج. العصر الحديث بين القرنين التاسع عشر والعشرين.

ويعرض المؤلف أيضاً نموذجاً اجتماعياً-برغماتياً-نظرياً لتحليل هذا الشعر أي مجموعة من الفرضيات والأوصاف والشروح والسياقات والمصطلحات التي تساعد على تفهم منطقي للنص الشعري أو لجنس من أجناس هذا الشعر. ويتضمن الفصل أيضاً سرداً للمواضيع التي يعالجها الشعر العربي-اليهودي في شمال إفريقيا.

أما الفصل الثاني فيعالج الشعر الديني-التعليمي الذي يشرح أصول الدين اليهودي وقيمه وما يطلب من المؤمنين وكيفية مخاطبة الخالق مباشرة او عن طريق الأولياء والابتهالات ومواضيعها. ويورد المؤلف نصوصاً عديدة بالإضافة الى ترجماتها الدقيقة.

وفي الفصل الثالث يخوض المؤلف في بحث شعر المطروز في الطائفة اليهودية في شمال إفريقيا، مع التركيز على شرح هذه الظاهرة الشعرية المتميزة، وشيوعها والقسريات العروضية والموسيقية المفروضة عليها، كما ويتوقف على العناصر اللغوية المختلفة فيها وعلى الاعتبارات النظرية والنصية الخاصة بها. ويقدم الباحث نماذج مختلفة لهذا الجنس الشعري الذي يخلط بين

النصوص العبرية والعربية العامية والفصيحة بحيث يأتي أحياناً مدمجاً قصيدة عبرية مع قصيدة إسلامية وأحياناً قصيدة عبرية مع قصيدة عربية-يهودية تقليدية، وكذلك مراثي عبرية مع مراث عربية-يهودية. وتساهم الأمثلة العديدة التي يوردها المؤلف في اثراء معلوماتنا عن طبيعة الحياة في الطوائف اليهودية في المغرب وعن صلات ابنائها مع البيئة الإسلامية المحيطة بهم، وكذلك طبيعة المصادر الثقافية اليهودية والعربية التي يستوحيها هذا الشعر. ومثال على ذلك قصيدة الثناء على الخالق التي تم تأليفها في القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر في الجزائر. وتستمد القصيدة أفكارها من معجم الحب الصوفي والأندلسي:

אערוך שיר תוך קהלה / אל ידיד אדום וצח,
وعسى يرضاني مولاي/ المليح ودموعي يمسح.

شبيه الغزلان غزالي/ אין דומה לו בעפרים,
المليح وصاله عالي/ אין להשיג רק בשירים;
وعسى نردك بمالي/ אשמעה טוב מאמרים.
ערכה שירה ומלה / סור שבח גולה ונדח,
قد وصلت، أهلاً وسهلاً/ بالوصل، الملح من الملح(ص٢٩٦)

ويعيد السطر الأول من هذه القصيدة إلى الأذهان ذلك الحبيب الذي كثر ذكره في القصائد وأبيات الشعر الصوفية كالبيت المنسوب إلى رابعة العدوية:

كأسي وخمري والنديم ثلاثـة وأنا المشوقة في المحبّة رابعـــــهْ

أما الشوق إلى الوصال والدموع التي تغمر العاشق فتذكرنا ببيتي رابعه التاليين:

كم بت من حرقي وفرط تعلقي أجري عيوناً من عيوني الدامعـــهْ
لا عبرتي ترقا ولا وصلي لـــه يبقى ولا عيوني القريحة هـــاجعهْ

ويخلص المؤلف في ختام هذا الفصل الى تبيان التغييرات التي حصلت في شعر المطروز في القرن العشرين، مع التركيز على ظاهرة احتضارها في النصف الثاني من قرننا بتأثير الظروف الاجتماعية والثقافية الجديدة، مما أسفر عن تأليف قصائد تدمج العربية-اليهودية والفرنسية ولا سيما في مجال الحب كالقصيدة التالية:

aupres de toi une heure,/ هاديك ما نتمنى.
J'aurai pour mon bonheur,/ وقليبي نتسنى.
ta place {!} dans mon coeur,/ عليك ما نتهنّى (ص٣٠٠).

ويعالج الفصل الرابع والأخير النواحي الاجتماعية-برغماتية والنحوية-لغوية في قصيدة واحدة من القرن السابع عشر التي يوردها المؤلف برمتها (١٤٣ بيتاً) مع الترجمة، ويتوقف شطريت على مبنى القصيدة، وعلى طريقة بناء مستويات مختلف انواع الخطاب الاجتماعي والثقافي من خلال تصوير الطائفة اليهودية وماضيها المجيد ونفسية أبنائها والنواحي اللغوية والعناصر العبرية في النص.

وفي الكتاب عدة ملاحق هامة: قائمة مراجع من عشر صفحات تحوي جميع ما نُشر من دراسات باللغات المختلفة عن المواضيع التي يعالجها الكتاب؛ وقائمة بالمخطوطات التي استعملها المؤلف؛ وفهرست القصائد حسب ترتيب عرضها؛ وفهرست القصائد حسب ترتيب أبجدي؛ وفهرست أسماء المؤلفين وكذلك معجم للمصطلحات المستعملة في الكتاب.

رؤوبين سنير